قاسم امين وباحثة البادية

(٩)

المقابلة بينهما (تابع وخاتمة)

قال المقتطف في وصفه حفلة التأبين لقاسم انه ورد في خطاب السيد رشيد رضا الكلمات الآتية: « اخبرني قاسم امين انه كان يوم اطلع على ما كتبهُ الدوق داركور غافلاً عن حال النساء بمصر فحملهُ ذلك النقد والتشنيع فاندفع الى الرد (١) بوجدان الغيرة وبعد ان شفى غيظهُ وأرضى غيرتهُ بذلك عاد الى نفسهِ وفكّر في الامر فرأى ان كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسهِ فبعثهُ ذلك الى ان درس هذه المسألة » « وانتهى به البحث والتنقيب الى تصنيف كتاب « تحرير المرأة »

والواقع ان من اطلع على الرد على الدوق داركور وعلى كتاب «تحرير المرأة» رأى ان فكر قاسم ارتقى واتسع وتسامى في الفترة التي مرّت بينهما . وقد عزّز هذا الكتاب بكتاب «المرأة الجديدة» ردّاً على معارضيهِ فجاء كالكتاب الاول، بل أقوى حجة وأوضح دليلاً . فقسمهُ الى حرية المرأة ، والواجب على المرأة لنفسها ، والواجب عليها لعائلتها ، ثم التربية والحجاب . وخاتمة تدون صورة الافكار في تلك الايام بالنسبة الى المرأة : أما الحرية فلا بد من منحها اياها لانهُ لا يظن « ان عقلاً يقبل ان تعتبر المرأة انساناً كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق اذا قتلت . ثم تعتبر انها ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شؤون الحياة العادية » فقال(٢)

« على ان ما قيل ويقال من ان حرية النساء تمرضهن فتخرج عن حدود اللغة كله كلام لا اصل له تبطله التجارب ويفنده العقل اذ التجارب المؤسسة على الشاهدات الصحيحة تدل على ان حرية النساء تزيد في ملكاتهن الادبية وتبعث فيهن احساس الاحترام لانفسهن وتحمل الرجال على احترامهن » (٣)

(١) Les Egyptiens, Réponse à M. le duc d'Harcourt, par Kassem Amin.

٢ و ٣ « المرأة الجديدة »

ويرى واجب المرأة لنفسها في ترتيب اعمال الانسان المنقسمة الى ثلاثة انواع: الاعمال التي يحتفظ بها حياتهُ ، والاعمال التي تفيد عائلتهُ ، والاعمال التي تفيد المجتمع ، مقرّراً ان هذه الاعمال من خصائص الرجال والنساء على السواء . ولكنهُ يضرب صفحاً عن نوع الاعمال الثالث لا لقصور المرأة وعجزها الظاهر الآن فحسب بل لانهُ يرى « اننا لا نزال الى الآن في احتياج كبير الى رجال يحسنون القيام بالاعمال العمومية » . يُسلّم بان القطرة أعدّت المرأة الى المعيشة العائلية ويردّد ان « احسن خدمة تؤديها المرأة الى الهيئة الاجتماعية هي ان تكون زوجة ووالدة » . الاّ ان هذا لا ينسيه الواقع وهو أنّ كثيرات ليس لهن عائل ولا واجبات عائلية ، وان عدد هؤلاء اثنتان في المائة من مجموع النساء المصريات « فهل من مصلحة الرجال او لعموم الهيئة الاجتماعية من ان يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؟ » ثم يتبسّط في الشرح قائلاً :

« يوجد في كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق او بموت الزوج ومن النساء من يكون لها زوج ولكنها مضطرة الى كسب عيشها بسبب شدة فقره او عجزه او كسله عن العمل . ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن اولاد . كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن » . « يقول المعترضون انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة اعمال الرجال والاختلاط بهم كما انهم لا يمنعون المرأة من التعليم اذا كان لازماً لكسب عيشها لان الضرورات تبيح المحظورات » . « ولا يخفى ان كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات » . ولما كان الاطلاع على الغيب امراً غير ميسور للانسان وجب ان تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل ان تقع لها » . « فاذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيراً وتفيد عائلتها وان لم تتزوج او تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الاسباب الكثيرة الوقوع امكنها ان تستخدم معارفها في تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها » . « يجب ان ترى المرأة على ان تكون لنفسها لا لان تكون متاعاً لرجل ربما لا يتفق لها ان تقترن به مدة حياتها . يجب ان ترى المرأة على ان تتعلم في المجتمع وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء . يجب ان ترى المرأة على ان تجد اسباب سعادتها وشقائها في نفسها لا في غيرها » . « وليس معنى ذلك الزام كل امرأة بالاشتغال باعمال الرجال وانما معناه انه يجب ان تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة اليه » (١)

هذا الجزء من الموضوع يفسدهُ كثيرٌ ممن يتعرضون لمعالجة تهذيب المرأة فيجزمون بأن لا وجود للمرأة الاّ بجانب الرجل ، فكيف يحب ذلك العدد الكبير

(١) « المرأة الجديدة »

من النساء الذي لا يعيش للرجل ؟ لقد انصفهن قاسم . ثم تحول الى الوظيفة المباركة التي سماها واجب المرأة لعائلتها ، مفصلاً كيف ان الناس عادة يسيئون فهم تلك الوظيفة إذ يجعلونها مقصورة على الامومة الجسدية ، ناسين ان المرأة الحرة هي التي يكون لها نفوذ عظيم صالح في اسرتها ، وان نفوذ الجاهلة المستعبدة لا يتعدى ما يكون « لرئيسة الخدم في البيت » وكم كان هذا النفوذ سيء الاثر جالب الهم والغم ! يلوم من كانت هذه حالتها مشفقاً ناسباً انحطاطها الى من هو السيد القادر ، مرجعاً إياه — كما فعلت الباحثة — الى سببه الحقيقي وهو اهمال الرجل وأنانيته وبطشه . وما تعلمه البنات الآن ليس بكاف في رأيه لان :

« اكثر ما تعرفه المرأة التي يقال الآن انها متعلمة هو القراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية يقتضي اليها . وما بقي من معارفها فهي تشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تتفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء » (١)

هو يريد شيئاً افضل وأعمق اثراً من هذه اللوامع الظاهرة التي يُعنى الاهل بطلاء شخصية بناتهم بها من عزف على آلات الطرب ، والغناء ، ومبادىء الرسم ، والكلام بلغة أو بلغات لا يحسن بها غير ثرثرة الاجتماعات وقراءة الروايات ، وتظارف الدمى تصنعاً بالصوت والحركة . يريد للمرأة شخصية قوية مستقلة ، ولا يظنها قادرة على القيام بوظيفتها في العائلة والامة الا اذا حازت جانباً كبيراً من المعرفة وهي الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها « شأن الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقي الكرامة والشرف » وان لم تكن الام راقية بمعرفتها وفكرها فكيف تستطيع تربية ابنها على مثل ذلك ؟ قال :

« غاب عن ان الرجل انما يكون كما هيأته والدته في صغره » . « ويظن الجمهور الاعظم من الناس ان التربية من الهنات الهينات ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم ان لا شيء من الشؤون الانسانية مهما عظم يحتاج الى علم اوسع ولا نظر ادق ولا عناء اشق مما تحتاج اليه التربية . اما من جهة العلم فلانها تحتاج الى جميع العلوم التي توصل الى معرفة قوانين نمو الانسان الجسماني والروحاني . واما من جهة المشقة والعناء فلان تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته الى بلوغه سن الرشد يحتاج الى صبر ومثابرة في العمل ودقة في الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج اليها عمل آخر . لا يؤخذ من ذلك اني اذهب الى ان كل امّ يجب عليها ان تحيط بتلك العلوم الواسعة ولكن ان جميع الامهات يجب عليهن ان يعرفن كلياتها وكلما زاد عدد النواحدة منهن باصول العلوم وفروعها

(١) « تحرير المرأة »

زادت قوة استعدادها لتربية اولادها ». « وليس تأثير المرأة في العائلة قاصراً على تربية الاطفال بل المشاهد بالعيان ان المرأة تؤثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح في اعماله واعدت له اسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لاشغاله ». « وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوّت عزيمته في ساعات اليأس والقنوط وكم رجل طلب المجد ومعالي الامور طمعاً في ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب » (١)

« واي مصلحة لرجل اعظم من ان يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه في الليل والنهار في الاقامة والسفر في الصحة والمرض في السراء والضراء رفيقة ذات عقل وادب عارفة بحاجات الحياة كلها تهتم بكل شيء يمس مصلحة زوجها ومستقبل اولادها تدبر ثروته وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه وتروج اعماله وتذكره بواجباته وتنبهه الى حقوقه وتعرف انها باجتهادها تجد في منفعتها كما تجد في منفعة زوجها واولادها . وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته وتشخص الكمال بصداقتها امام عينيها فيحب بها ويتمنى رضاها ويتوسل اليها بافاضل الاعمال ويدنو منها بمقائل الصفات ومكارم الاخلاق . صديقة تزين بيته وتبهج قلبه وتملأ اوقاته وتذيب همومه ؟ هذه الحياة التي لا يشعر الرجل عندنا بشيء منها هي من اعظم الينابيع للاعمال المخيبة » (٢)

يا للبلاغة ساعة يصف المرأة المثلى ! انه يتوق الى ان يلقى فيها زوجة وأماً واختاً وصديقة وحبيبة والهة ومهذبة جميعاً . هو جائع عطش الى كل ما تكنه ذاتها من رحمة وحنان وحزم وحب شامل . كم كان أميناً لخياطها في ذهنه ساعة قال انه كلما حاول ان يتصور السعادة رآها امرأة « حائرة لجمال المرأة وعقل الرجل » !

***

في كتاب « تحرير المرأة » الذي هز مصر يومئذ هزة عنيفة لم يطلب رفع الحجاب دفعة واحدة ، بل هناك أقوال صريحة تدل على أنه ليس أقل من الباحثة اعتدالاً . مثلاً :

« اني لا اقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه اليوم » . « وانما الذي اميل اليه هو اعداد نفوس البنات في زمن الصبا الى هذا التغيير . فيعودن بالتدريج على الاستقلال ويودع فيهن الاعتقاد بان العفة ملكة في النفس لا ثوب يخفي دونه الجسم . ثم يعودن على معاملة الرجال من اقارب واجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية واصول الادب تحت ملاحظة اوليائهن »

بل يعتقد : « انه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها الى الآن — والنفوس على ما هي عليه — لمست البلوى وزاد الفساد انتشاراً » . « وليس الدواء في تغليظ الحجاب لانه

(١ و ٢) « المرأة الجديدة »

مستحيل . بل من مشمات شؤوننا ان نحافظ على هذه الحالة (حالة الاختلاط بالاجانب وقبول الصالح من عاداتهم) متقين المضار التي نشأت عنها » . « والطريقة الناجعة والحجاب المنيع هي التربية الصالحة »

« والذي اراه في هذا الموضوع هو ان الفريقين قد قالوا في اباحة التكشف للنساء وقد تغالينا نحن في طلب التحجب » . « وبين هذين الطرفين وسط — هو الحجاب الشرعي — وهو الذي ادعو اليه »

يمكننا اليوم ان نتخيل بسهولة بأيّ حدة وغضب قوبلت هذه الدعوة الجسورة ، وكيف هبّ المعممون والمطربشون يدحضونها ويرمون صاحبها بالكفر . أما هو فقرأ تلك الانتقادات بتمعّن وردّ عليها بخصافة في كتاب « المرأة الجديدة » حيث قال :

« وعلى اننا بعد ان دققنا النظر في جميع ما قيل أو كتب في هذا الشأن لا نزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه الا وثوقاً بصحة ما ذهبنا اليه » . « ولم يكن في الحجاب من عيب الا انه مناف للحرية الانسانية وانه صار بالمرأة الى حيث يستحيل عليها ان تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع ان تباشر عملاً ما بنفسها مع ان الشرع يعترف لها في تدبير شؤونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل وجعلها سجينة مع ان القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل — لو لم يكن في الحجاب الا هذا العيب لكفى وحده في مقته ولي ان ينفر منه كل طبع فرز فيه الميل الى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الاعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها »

ولعلّ هذا الرجل سليل الامير الكردي تسمى أبداً في جريان دمه ومطاوي روحه تذكاراتُ اغاراتِ جدوده في جبالهم العصية وكل ما استنشقهُ آباه آبائهِ من هواء نقي وتمتعوا بهِ من حرية ، فما ذكر الحجاب والضغط الاّ هتف :

« اي نفس حساسة ترضى بالمبيت في قفص مقصوصة الجناح مطأطئة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له امامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها وأرواح الكون تناجيها وتوحي اليها الآمال والرغائب في فتح كنوز أسرارها ؟ »

وللمعترضين بأن الاطلاق يجلب الضرر يجيب : « اما الاطلاق في نفسه فلا يمكن ان يكون ضارا ابداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة . لان التربية الصحيحة تكون افراداً اقوياء بانفسهم يعتمدون على انفسهم ويسيرون بانفسهم . فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره . ومن نقصت تربيته احتاج الى التيرفي كل اموره . فالاستقلال في النساء كالاستقلال في الرجال يرفع الانفس من الدنايا ويسمو بها عن الخسائس : لذلك يجب ان يكون هو الغاية التي نطلبها من تربية النساء »

بيد أنهُ أدرك ان اصلاح المرأة لا يتمّ بالتربية وحدها ما لم يتوفر لها وسطٌ يكفل حفظ ما تكتسبهُ من فائدة معنوية ، ولا بدّ لذلك من كمال نظام العائلة

القائم على مسائل مهمة ثلاثة ، وهي الزواج والطلاق وتعدُّد الزوجات . وقد جعل اساساً لكلامهِ الآية الحكيمة القائلة : « ومن آياتهِ ان خلق لكم من انفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً »

أين « المودة والرحمة » ؟ يسائل قاسم نفسهُ . أمن دواعي المودَّة ان يرتبط الزوجان برباط الزواج قبل ان يتعارفا وقبل ان يميل كلٌّ منهما للآخر ؟ أمن دواعي المودَّة ان لا يتفاهم العروسان الاَّ بعقول الآباء والجيران والرسل وان لا يعلم الواحدُ من احوال الآخر الاَّ ما يسمعهُ نقلاً عن ناقلٍ مغرض أو مندفع ؟ وأين تلك « الرحمة » من رجلٍ يتزوَّج من النساء ما شاء ومتى شاء ؟ واين الرحمة في قلوبهن وكلٌّ منهن شاعرةٌ بأنها مظلومة وان زوجها مستبدٌّ طاغٍ ؟ أين الرحمة في قلب رجل يؤذي امرأةً في أرقّ عواطفها وأعزّ ما عندها ، ويسحقُ حياتها وسعادتها تحت قدم أهوائهِ ؟

يقول بضرورة التلاؤم في الاذواق والميول ، وانهُ لا غنى عن ان يرضى كلٌّ بهيئة صاحبهِ فلا يشعر بذلك « النفور » الذي يبعد بين بعض الاشخاص لمجرد النظر ، ويقول بوجوب ائتلاف الملكات والعقول . ولا يتأتَّى كل ذلك الاَّ اذا خالط كلٌّ منهما الآخر ولو قليلاً قبل الخطبة ، وبهذا الاجتماع عود الى « اصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وهو اصلاح يقضي بهِ العقل السليم » . « لان رجال العصر الجديد لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها وانما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لا خادمة تُستعمل في كل شيء » . « وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب ان يكون للمرأة في انتخاب زوجها ما للرجل في انتخاب زوجتهِ فانهُ امر يهمها اكثر مما يهم ذوي قرابتها »

أما تعدُّد الزوجات فقد لطمهُ بشدة مستعيناً في ختام « المرأة الجديدة » بالتقرير الذي وضعهُ يومئذٍ فضيلة خالد الذكر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية بشأن اصلاح المحاكم الشرعية . تعدُّد الزوجات عنده عادة بربرية كانت منتشرة عند ظهور الاسلام ولا محلَّ لها في هذا العصر الذي تصعد فيهِ الشعوب درجة الرقي ، وان الفرد اذا ارتقى الى حدٍّ عرف عندهُ كرامتهُ وكرامة الزوجة والاولاد مال الى الاكتفاء بامرأة واحدة . لانَّ :

« في تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة » . « وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها ارتبط بامرأة اخرى اذ لا يخلو حالها من احد امرين اما ان تكون مخلصة في محبتها لزوجها تتعذب بحران الغيرة في قلبها وتتذوق عذابها . واما ان لا تكون كذلك وهي راضية بشركته لسبب من الاسباب فهي مع ذلك ترى لنفسها مقاماً في اهله فاذا ارتبط باخرى سواها قامت من الالم ما يمنعه احساسها بان ذلك المقام الذي كان بانياً لها قد انهدم ولم يعد لها امل في بقاء شيء من كرامتها عنده » . « ولا ريب في ان شقاء المرأة بهذه الحال يكون له اثر شديد في نفس الرجل المهذب حتى يشعر دائماً بانه هو السبب في هذا الشقاء . ثم ان الاولاد من امهات مختلفات ينشأون بين صوائف الشقاق » . « مثلهم كمثل السائح الاوروباوي تظهر عليه السلم وهي تأخذ اهبتها للحرب حتى اذا حانت الفرصة وثب كل منها على الآخر فرق بعضهم بعضاً كما نشاهده في اغلب العائلات . « فلا ريب بعد هذا ان خير ما يسعه الرجل هو انتقاء زوجة واحدة . ذلك اذن ان يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفي زوجته واولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة واقرب الى الوصول الى سعادته » (١)

ولا يجيز التزوج باكثر من واحدة الاَّ في حالة الضرورة المطلقة . ومن ثم يصل الى الطلاق فيقولُ بانهُ يفضل ان يكون الزواج عقدة لا تنحل الاَّ بالموت « ولكن مما يجب مراعاتهُ ان الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرتهُ فوق طاقة البشر » . فيبيحُ الطلاق لانهُ من المضرات التي لا يستغنى عنها ومنافعهُ تزيد اضرارهُ . غير انهُ يقبحهُ كما هو شائع مبنيًا على التلفظ المستعمل بسهولة العادة ، ولا يقبلُ بهِ الاَّ مع النية الحقيقية والارادة الواضحة برفع قيد الزواج ووقوع الانفصال . وقد سنَّ للطلاق نظاماً قائلاً ان الحكومة اذا ارادت ان تفعل خيراً للامة فعليها ان تعمل بهِ . وهو :

(المادة الاولى) كل زوج يريد ان يطلق زوجته فعليه ان يحضر امام القاضي الشرعي او المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته

(المادة الثانية) يجب على القاضي او المأذون ان يرشد الزوج الى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق مكروه عند الله وينصحه ويبين له تبعة الامر الذي سيقدم عليه وبأمره ان يتروى مدة أسبوع

(المادة الثالثة) اذا اصر الزوج بعد مضي الاسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي او المأذون ان يبعث حكماً من اهل الزوج وحكماً من اهل الزوجة او عدلين من الاجانب ان لم يكن لهما اقارب ليصلحا بينهما

(المادة الرابعة) اذا لم ينجح الحكمان في الاصلاح بين الزوجين فعليهما ان يقدما تقريراً للقاضي أو المأذون وعند ذلك يأذن القاضي او المأذون للزوج بالطلاق

(١) « تحرير المرأة »

(المادة الخامسة) لا يصح الطلاق الا اذا وقع امام القاضي او المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية

وليكون انصافهُ تاماً مستوفياً ، قال ان اعتبار المرأة لنفسها وحفظ كرامتها يقضيان بمنحها حق الطلاق ، كما للرجل ، وانهُ ليس من العدل ولا من الانسانية ان تُسلب واسطة التخلص من زوج شرير او من ذوي الجرائم ، الى غير ذلك مما لا يمكن لامرأة سليمة الذوق والخلق ان ترضى بمساكنتهِ

ومعلوم ان هناك ضرباً من الزواج يدعى « زواج العصمة » بهِ تحتفظُ المرأة عصمتها بيدها فتتطلقُ عند ما تشاء دون ان تقدم سبباً للمحكمة . ويقال ان عدداً يذكر من اغنياء المصريين يحفظون عصمة بناتهم عند الزواج وان المرحومة البرنسس نازلي هانم كانت متزوجة على هذه الكيفية

***

إذن فباحثة البادية وقاسم امين متفقان في وجوب اصلاح المرأة وفتح ابواب التعليم امامها وجعل التربية متوفرة لها ، وهي من خصائص المنزل . كذلك هما متفقان في وجوب الاجتماع والتعارف قبل الخطبة ، وفي حل مشاكل الطلاق وتعدد الزوجات . ولا يختلفان في مسألة الحجاب الاَّ قليلاً ، لان كلاً منهما يعترف بخطر إباحتهِ بلا استعداد وبضرورة تعويد البنات عليهِ في الصغر واعدادهن لهُ مسلحات بالعلم الكافي والتربية المتينة . هذا في النقط الاساسية . أما من حيث التفصيلات فان كلاً لحق فطرتهُ واثبت نظرتهُ الخصوصية في الحياة

قضى قاسم امين في ١٩٠٨ وقضت الباحثة منذ عام وشهر وبعض شهر . فما هي نتيجة عملها ، وما هو الاثر الذي أجرياهُ في بيئتهما ؟ انهُ يصعب جداً تعيين هذا الاثر وحصر تلك النتيجة ، لانَّ عمل الفكر مكروب خير وضياء يسري متوارياً في الاذهان والعواطف ، محتجباً عن انظار الناظر واحصاء الحاسب . اننا لا نستطيع ان نتصوَّر كيف تكون الحالة لو لم يجيئا ويكتبا . أما من جهة الباحثة فلو لم يكن غير حفلتي التأبين اللتين أقام احداهما الرجال لمرور الاربعين يوماً على وفاتها ، وعقد الاخرى النساء لمرور العام . لو لم يكن غير ما قيل في رثائها واذاعة فضلها مما لم يكن لامرأة قبلها في مصر الفتاة — لو لم يكن غير ذلك

لكفى لتعيين مكانتها العالية . وسل الشبيبة التي كتب لها قاسم امين وهي طفلة تلعب ووضع كل آمالهُ فيها ، سلها عنهُ تجبك كم تقدّرهُ والى أي درجات الاعزاز والاكبار يصل في نفسها

لقد شاع قبيل الحرب ان عدداً من الشبان المتعلمين اتفقوا فيما بينهم على تأليف جمعية لتحرير المرأة ، حتى اذا بلغ عددهم الالف اطلقوا الحرية لنسائهم واخواتهم وامهاتهم وبناتهم واباحوا لهن ان يخرجن سافرات . أليس ان قاسم امين أوجد هذه الفكرة في كتاب « تحرير المرأة » حيث اقترح تأسيس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناتهِ على الطريقة الجديدة وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين ، ويكون عمل الجمعية في امرين : الاول التعاون على تربية البنات على القاعدة الحديثة . والثاني السعي لدى الحكومة في اصدار القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط ان لا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود الشرعية

واما الحكم في صلاحية ما ارتآه كلٌّ من هذين المصلحين الجليلين فهو كما قال حافظ في مرثاتهِ لقاسم امين :

الحكم للايام مرجعهُ في ما رأيت فنم ولا تسل
وكذا طهاة الرأي تتركهُ لدهر ينضجهُ على مهلِ

ليتململ الآن كلٌّ منهما في اكفانه متلفتاً كما يتلفت الزارع الى سهول زرع فيها حبات قلبهِ ريا ان البذور المودعة في صدر الارض نمت وترعرعت وصارت خضرةً سندسية تبشر بالحصاد الذهبي العتيد. ريا الشبيبة ناهضة والمرأة مشاركةً الرجل في افكاره وعواطفهِ . ريا ان فئة بدأت تفهم ما قالهُ تنسن من ان قضية المرأة هي قضية الرجل (١) وانهما عمودا العائلة فان مال احدهما وقصر واختل وضعهُ تداعى سقف الاسرة وانهار صرح الاجتماع القائم على دعائم العائلة . ريا نفوساً متيقظات وعقولاً تدرك كرامة الافراد وكرامة الجماعات . نعم ان هذه فئة صغيرة من المجموع الكبير ولكنَّ نقطة النور ستظل آخذةً في الاتساع

(١) The woman's question is man's; They rise or sink Together, dwarfed or god-like, bond or free. Tennyson.

حتى تشمل القوم قليلا قليلاً . اذ ذاك تقدر مصرُ المفكرة قدر من فتح الطريق بكل ما لديهِ من وسيلة وقوة . اذ ذاك تشعر نحوهما بتلك العاطفة التي هي فوق الاعجاب والشكران ، وقد سماها كارليل « عبادة الابطال » فتطلقُ على كلّ اسم « بطل الاصلاح »

وعلى هذا نكلمتي الاخيرة كلمة أمل ونشيد ظفر . والحكم في مستقبل المرأة المصرية — وامرأة الشرق الادني على العموم ، لان مصر عظيمة الاثر في ابناء هذه الاقطار — يجب ان يستخرج من « كتاب تحرير المرأة » ذلك الحكم الذي اصدرهُ المؤلف ساعة وحيٍ ودوَّنهُ في السطور الآتية :

انهُ لا بد لحسن حال الامة من ان تحسن حال المرأة . فاذا أرسل الناظر فكرهُ ليحيط باطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط بهِ من المسائل انجلت لهُ الحقيقة وتجلَّت لهُ بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابهُ الخيال الذي كان يظنهُ جسماً . يرى المرأة التي يهيئها المستقبل تتلألأ في أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولابسة حلة كمالها الثنائي : الجسم والعقل

(يتبع)

تراجم المئات

وضع كثير من العلماء كتباً جمة في تراجم المشاهير وسيَّر الادباء من علماء ومؤرخين وكتَّاب وشعراء وامراء وحكام وصنَّاع وغيرهم ولكنَّ الذين سموا مؤلفاتهم باسماء المئات من السنين قليلون ولهذا استقرتُ ما عُرف منها مما وصلت اليهِ يد التنقيب وسبكتهُ بهذه العجالة لتكون تذكرةً لمن يريد الوقوف على تفاصيل هذه التراجم التي ينقصنا اليوم طبع كثير منها تتمة لحلقات السلسلة التي طبع قليل منها ولاسيما في الاعصر المتأخرة من مشاهير القرون الحادي عشر والثاني عشر وبعض رجال الثالث عشر للهجرة والثامن عشر والتاسع عشر للميلاد . وهناك كتب جديرة بالنشر لما فيها من الفوائد الكثيرة والآداب الرائعة مثل (الضوء اللامع) و (الكواكب السائرة) وما قبلها بحسب الترتيب . وقد اشرت الى محالّ